**المقدمة :.**

حظيتْ الحياة الثقافية في الأندلس بكثير من الشعراء البارزين الذين عكسوا الصور الايجابية عنها، وضاهوا اقرانهم في المشرق، وهذا ما يمكن ان نلحظه في اشعارهم ودواوينهم المجموعة، وكان للظروف التي مرت بها الأندلس الأثر الأكبر في التأثير في جانب من أشعارهم بوساطة تأثيرها عليهم، فالشعر نتاج بيئته، والشاعر ابن البيئة، وعلى ذلك اختلف الشعر في الأندلس عنه في المشرق، ولا اتفق مع من حاكم الشعر الأندلسي قياساً بقرينه المشرقي واتهمه بالتبعية له، إذ لكلٍّ منهما شُعراؤه وبيئته المنتجة له، فالشعر في الأندلس هو شعر أندلسي ذو طابع خاص، له متلقيه ومتذوقه الخاص الذي يجد فيه ما يُغني احساسه، ويعيش معه متعة احساس الذائقة الشعرية، أما الشعر في المشرق فهو شعر خاص بأبناء المشرق، له بيئته الخاصة التي تختلف عن نظيرتها الأندلسية، نعم لا يمكن ان ننفي التأثير والتأثر بين المجتمعات الثقافية، إلا ان ذلك لا يُعطينا الحق أن نسم الثقافة الأندلسية عامة بالتبعية للمشرق، وإنّما يمكن أن نقول بالتأثر بها.

وعليه فالشاعر ابن بيئته، يتأثر ويؤثر بها، وهذا هو حال ابن السِّيد (ت٥٢١هـ) الذي كان للأوضاع السياسية والاجتماعية في تلك المرحلة (الطوائف والمرابطين) الأثر الأكبر في حياته، ومن ثم انعكاس ذلك في نتاجه الأدبي، واظهر ما كان بيناً في حياته هو القلق من الأوضاع والمحيط الخارجي الذي يلف واقعه الاجتماعي، والذي انعس بصورة واضحة في اشعاره، إذ كان دائم الترحال، باحثاً عن الأمان والاستقرار في محطات حياته التي يمكن ان ترتسم بست مراحل تاريخية، تبعاً لجغرافية ترحاله واستقراره، حاول فيها الشاعر ان يحظى بجانب من الأمان الذي وجده وهماً في ظل ظروف المرحلة التاريخية التي عايشها، ولكنه وجده اخيراً في مستقره في محطته الأخيرة في بلنسية التي ركن فيها الى التدريس، وكانت دار مثواه الأخير بعيداً عن الحكام والسعي وراء كسب رضاهم، والتوجه الى نيل رضا الله تعالى، ففي ذلك غنى النفس وسعادتها، وهذا ما ادركه ابن السِّيد نتيجة رحلته في الحياة.

وفي هذا البحث سنحاول تتبع حالة القلق التي عايشها ابن السّيد وصراع الذات الذي رافق ذلك القلق، والظروف التي اجبرته في كثير من الاحيان على فعل امور لا تنسجم وسمو ذاته، فنراه يخضع احياناً، ثم يثور على ذلك الخضوع متفاخراً بذاته وشعره ومنزلته، كل ذلك ساقه الى منطقة صراع بين الواقع وظروفه من جانب، وبين اعتزازه بذاته ومنزلته العلمية ومكانته الدينية من جانب آخر، فربّما عاش في ظل تلك الظروف في حالة من القلق الذي سنحاول الوقوف عليه في رحلة هذا البحث.

**تنبيه:**

في اثناء البحث وجدنا مواضع قد توهم فيها جامع اشعار ابن السيد الدكتور رجب عبد الجواد ابراهيم نرى من الضرورة بمكان ان نؤشرها للتنبيه عليه.

- في صفحة ٦٦-٦٧ القطعة ١٦ ينقل الدكتور رجب عبد الجواد تعليقاً على هذه الابيات ورد في أزهار الرياض ينسبه الى المقري، والحق ان المقري ينقل ذلك عن الفتح ابن خاقان ويشير الى ذلك صراحة، الا ان الجامع قد وقع في لبسٍ صريح وواضح هنا، فنسبه الى المقري توهماً، والحق أنّه للفتح بن خاقان.
- ثم ان الفتح بن خاقان يقول: قال ابن عمّار ويقصد محمد بن عمّار (ت ٤٧٩ هـ) وهو ابو بكر محمد بن عمّار بن الحسين بن عمّار، شاعر ووزير من أهل الاندلس ارتبطت حياته بحياة ملك اشبيلية المعتمد بن عبّاد الذي قتله بيديه سنة ٤٧٩هـ، له ديوان شعر مطبوع بتحقيق الدكتور صلاح خالص، على حين ان الجامع قد وقع في توهم آخر حين نسب هذه الابيات لابن السيد وجعلها قطعة مستقلة ضمن أشعاره، والحق أنها لابن عمار وليست لابن السيد، فلم يدقق الجامع وأخذ الامر على الظاهر، فالتبس عليه ووقع منه التوهم الثاني، فيقول الجامع: ويحكي المقري سبب إنشاد ابن السيد لهذه الابيات بقوله:.... فالمقري في حديثه هذا ينقل عن الفتح ابن خاقان والكلام ليس له، على حين انّ الجامع نسبه للمقري خطأً، ثم ان ابن خاقان لم ينسب هذه الابيات لابن السيد انما لابن عمار حين قال: وقد كان ابن عمار ذهب مذهبه، وفضضه بالإبداع وذهبه، حين دخل سرقسطة .... فقال:

نَقَمْتم عليّ الـــــــراحَ أدمنُ شُربَها ... وقُلتم فتى راحٍ ولـــــيس فتى مَجْدِ
ومن ذا الذي قاد الجياد الى الوغى ... سواي ومن أعطى الكثير ولم يُكدِ
فديتكم لـــــــــم تفهموا السّرَّ إنّما ... قليتكم جُهدي فـــــأبعدتُكم جُهدي

وعليه رأيت من الواجب التنبيه الى ذلك.

**مدخل : صراع الوجود :.**

كثيراً ما اجبرت الظروف في الأندلس الإنسان للعيش في قلق دائم جراء الصراعات والنزاعات الداخلية والخارجية، مما شكل عبأً مضافاً في الحياة، إذ إنّ هذا الخوف من المجهول والقلق الدائم من تقلبات الأوضاع، نتيجة للصراع، ربّما يدفع بالإنسان عموماً الى محاولة التكيف في البحث عن مساعِدات لاستمرار الحياة، إذ الإنسان بطبعه محب للحياة، ولاسيما الإنسان الأندلسي الذي تجبره الطبيعة الأندلسية على التمسك بها ربّما أكثر من غيره في المجتمعات العربية، خصوصاً إذا ما قُرنت بظروف المجتمعات الصحراوية القاسية، التي تعايش معها الإنسان العربي[١] ، فربّما هذا القلق والخوف من المجهول نتيجة مختلف الصراعات من جهة، ومحاولة التمسك بالحياة من جهة اخرى، دفعت الإنسان الأندلسي الى صراع وجودي لمحاولة البحث عن إطمئنانٍ نسبي، للتكيف مع الظروف، وعيش الحياة.

إلا إنّ هذا الإطمئنان تختلف صوره من شخص الى آخر، إذ ربّما يرضى البعض بالأدنى من درجاته، فيراه بتحصيل العيش، والرضا بالقليل، والسكن الى عائلة، في حين يراه البعض بالمكاسب المادية الكبيرة، إذ إنّ المال قوة وتحصين، يحقق بكثرته الإطمئنان والاستقرار، وقد يراه البعض بالسلطة وقوتها، إذ يمكنه أن يتحصن بها ليصل الى الإطمئنان والعيش بهدوءٍ ورضا، والى غير هذه المسالك قد يسلك البعض لتحقيق طموحه المنشود في الحصول على الاستقرار والأمان في ظروف اجتماعية أقل ما يمكن أن توصف بالقاسية والقلقة، لاسيما في مرحلة عصري الطوائف والمرابطين، ومن قبلهما الفتنة، التي عاشتها الأندلس[٢] ، إذ كانت الصراعات والنزاعات على اشدها، والتسابق على السلطة في أوجه، فضلاً عمّا رافق ذلك من كثرة الدسائس والمؤامرات لكل من حاول أو يحاول التقرب من السلطة الحاكمة، وإن اختلفت نواياهم إلا إنّ الدسيسة حاضرة[٣] ، والمؤامرة ومحاولة توجيه التهم جاهزة لإبعاد الخصوم والتفرد بالحاكم، وفي ذلك مثلاً قول ابن دراج القسطلّي_ وهو ممن تأثر بالفتنة_ راداً على اتهام خصومه[٤]:

**حَسبي رِضاكَ من الدهرِ الذي عَتَبا ... وجُودُ كَفَّيكَ للحظِّ الـــــــذي انقَلَبَا**
**من بعدِ مـا أضرم الواشون جاحِمةً ... كانت ضلوعِي وأحشائي لـــــها حَطَبا**
**ودَسَّسُوا لـــــي فـــي مثنى حبائلهم ... شنعاء بِتُّ بـــــــــــها حَرانَّ مُكْتَئِبا**
**حتى هُزِزتُ فـــــلا زَنْدُ القريض كَبا ... فيما لديَّ ولا سيـــــــــفُ البَدِيةِ نَبا**

إنّ مرحلة الطوائف بالذات شهدت حالة من التنافس الثقافي بأشكاله كلها، لاسيما من ذلك تنافس الأمراء في جلب الشعراء، وتنافس الشعراء في الوصول الى الأمراء، بغض النظر عن النوايا، سواءً عند الأمراء أو الشعراء، وهي كثيرة ومتعددة، المعلوم منها أو ما خُفي، ومن الطبيعي ان يرافق ذلك التنافس نوع من الدسائس والمكائد كوسائل للإطاحة بالخصوم والظفر بالجائزة.

وهذه الحال تجري أيضاً على الشعراء المشهورين، ومنهم شاعرنا ابن السِّيد، إذ إنّهم دخلوا في دائرة الصراع الوجودي والمنافسات، سواءً بإرادتهم أم رغماً عنهم، فهم يعيشون الظروف نفسها، والحياة

وقساوتها، مما أجبرهم للدخول في تلك الصراعات، وإن اختلفت أهدافهم المادية منها أو المعنوية، فابن زيدون (أبو الوليد أحمد بن عبد الله ت ٤٦٣هـ)، مثلاً تقوده الظروف وقساوة الحياة ومرارة المكائد في ظل ممدوحيه من جهة، ومحاولة التعايش مع الظروف واثبات الوجود، ليموت في مكيدة حاكاها له وزيرا المعتمد بن عبّاد، ابن مرتين وابن عمّار وهو لا يعلم(٥)، تاركاً وراءه قلقاً رافقه دهراً، وبحثاً عن حياة سياسية طامحة لم ينل منها مبتغاه، فمع أنّه كان من قبلُ، موالياً لبني جهور، مادحاً لهم ومعظماً، أجبرتهم الدسائس وتصيد السقطات، من الوزير ابن عبدوس، أن سجنه الأمير الحزم بن جهور ما يزيد على خمسمائة يوم، حتى أنّه بعث من سجنه رسالته الجدية مستعطفاً ولكن من دون جدوى، فتضطره قساوة الظروف الى الهرب، فطالما تعرَّضَ لمشاعر الخوف والقلق والرهبة وقد طال حبسُهُ، فعبَّر عن ذلك في مجموعة من قصائده، منها قصيدته الطائية التي يشير فيها إلى فراره وأمله في العفو، يقول فيها(٦):

**فررتُ، فإنْ قالوا الفـــرارُ إرابـةٌ ... فقد فرَّ موسَى حين همَّ بهِ القِبـطُ**
**وإنـي لَراجٍ أنْ تعـــــودَ كَبدئها ... ليَ الشيمةُ الزهراءُ والخُلُقُ السَّبـطُ**
**وحِلمُ امرئٍ تعفو الذنـوبُ بعفوِهِ ... وتُمحَى الخطايا مثلَ ما مُحِيَ الخطُّ**
**فما لكَ لا تختصُنـــي بِشفاعةٍ ... يلوحُ على دهري لِميسمِها عَـلطُ؟**
**يفي بنسيم العنـــبرِ الوَردِ نفحُها ... إذا شعشعَ المسكَ الأحَمَّ به خَلْـــطُ**
**فإنْ يُسعفِ المولَى فنُعمَى هنيئةٌ ... تُنَفَّسُ عن نفسٍ ألظَّ بها ضغطُ**
**وإنْ يأبَ إلاّ قبضَ مَبسوط فضلِهِ ... ففي يدِ مولَىً فوقَهُ القبضُ والبسطُ**

ولكن الحنين يعيده الى قرطبة، فعاد وتولى الوزارة للوليد بن جهور بعد وفاة والده الحزم سنة (٤٣٥هـ)، فقربه واحسن اليه، ولكن الحياة لم تصف له ولم تطب إذ يغير الحاسدون صدر الوليد عليه فيتوعده، وهكذا يهرب ليلتجئ الى بني عبّاد، فتقلد الوزارة للمعتضد (ت ٤٦١هـ) ويتقلد ابنه المعتمد الحكم فيتخذ من ابن زيدون صديقاً له، ويجعله شاعره المفضل، ولكن حتى عند بني عبّاد لم تستقر حياته ولم تهن، إذ اجبرت المكائد المعتمد أن يُرسله مع الجيش الى اشبيلية وهو في حالة صحية سيئة، فمات قبل ان يصل، ورحل مع كل الهموم والمحن والاهداف التي لم يصب منها نصيباً(٧).

ومن أمثال ابن زيدون من عاش القلق الشاعر ابن دراج القسطلّي (ت ٤٢١هـ)، الذي ارتسم اغلب شعره_ إن لم يكن كله_ بالاستعطاف وذكر الأسرة، وبكائه من الفراق ولوعة هجرهم ( زوجته وأولاده ) حتى اسماه الدكتور أحمد هيكل ( شاعر العاطفة الأسرية )(٨) لأنه كان دائم الحديث عن عائلته في شعر المديح، على حين يؤشر الدكتور احسان عباس اتباع الشاعر ذلك الاسلوب، لأنّه لم يكن مطمئناً في ظل ممدوحه المنصور العامري، فأكثر من وصف مواقف الوداع والاستكثار من معنيين هما: ذكر مفارقته لزوجته وابنته، وصعوبة الفراق وحاجته الى الرضا والثقة، بحيث يحقق حالة من الاستقرار(٩).

إذن تحقيق الهدف ربّما يُشعر بنوع من الاستقرار، على حين يكون القلق معادلاً موضوعياً لمحاولة تحقيق الهدف، يحفز الشاعر لديمومة البحث عن وسائل تحصيله، فهي علاقة تتابعية، فالقلق عند ابن زيدون ربّما يبدو أنه كان سياسياً وعاطفياً، في حين نجده لدى ابن دراج مادياً وعاطفياً، وفي الوقت ذاته ربّما نجده لدى شاعر فقيه، كابن حزم ( ت٤٥٦هـ ) الذي طالته المؤامرات واكتوى بنار الفتن والدسائس، القلق لديه يستحوذ على الجانب الفكري والسياسي، وهو أهم اسباب صراعاته وبحثه عن الاستقرار والاطمئنان في حياة شابها العنف وقسوة الصراع للبقاء واثبات الوجود، ((وقد تكيف وعيه بحسب المشكلات الصغيرة التي تعرض لها بين الحين والحين، وأعرض عن التفكير في المشكلة الكبرى، مشكلة الوحدة والرابطة القوية))[١٠]، وهذا كله نتيجة انعكاس منطقي لما يعيشه المجتمع من صراعات وفتن.

وكحالهم يمكن ان تكون حال كثير من الشعراء في الاندلس في تلك المرحلة القلقة، ومنهم شاعرنا ابن السِّيد، إذ إنّ المتتبع لمسيرة حياته وما رافقها من تقلبات وعدم استقرار مصحوب بعدم رضا من الشاعر عمّا هو فيه، دفعه الى عدم الركون الى حالة واحدة وعند ممدوح واحد، فكانت حياته عبارة عن مسيرة من الترحال الدائم وعدم الاستقرار المصحوب بالقلق والخوف من القادم المجهول، كل ذلك دفعه الى أن تقف حياته في محطات ست بحث فيها عن الاطمئنان والهروب من القلق، والاستقرار الذي كان اخيراً في قبر قد ضم جثمانه في بلنسية سنة (٥٢١هـ)، فكان ما يبحث عنه سراباً امتد على طول سنين حياته السبع والسبعين، إذ استقر في بلنسية وابتعد عن صحبة الحكام واصحاب السلطة، وانصرف الى خدمة علوم الدين والعربية، فكان هذا المسلك الاسلم لعالم فذّ كابن السِّيد.

ومن هنا سنعيد الرحلة مجدداً مع ابن السِّيد، واقفين معه في محطات حياته، ناظرين الى ظروف حياته وبحثه عن الاستقرار المفقود، وأبعاد قلقه المشروع وخوفه من الدسائس والمؤامرات التي تجبره دائماً الى الاسراع بحجز تذكرة سفره قبل فوات الاوان عله يجد في محطته القادمة الهدف المنشود ( فردوسه المفقود).

**نَبِّهِ الليْلَ بالـــــــوجيفِ ولا تُو ـــلغْ بـــدارِ الهَوانِ بالإغْمَاضِ**
**أنْقذتني منَ الرَّدى وطأتي البيـ ـــدَ ونقْضُ الهمومِ بالإنقاضِ[١١]**

**١- المحطة الأولى: بَطَليوس / المنهل الثقافي :**

فيها ولد شاعرنا ابو محمد عبد الله بن محمد بن السِّيد البطليوسي الشلبي، الذي وصفه ابن خاقان بأنّه ((إمامُ الأوانِ، ومَعلَمُ النحو، وعَلَمُ الإثباتِ والمحو، به يُدرك غامضُهُ ويستثارُ رابضه، وهو بالأندلُسِ في الأدب، كالجاحظ، بل ارفعُ درجةً وانفع لمن شام برقهُ أو شمّ أرجَهُ، وشلبُ بيضتُهُ، ومنها كانت حركةُ ابيهِ ونهضتُهُ، وفيها كان استقرارهم وعنها وقع عند تغلب البربر فرارهم، ونسب الى بطليوسَ لتردده بها ولمولده في تربها))[١٢].

فهو علم قد تدانت دونه الاعلام، وحاز السبق وعلى درجة حتى جاوز الجاحظ لمن اراد الانتفاع. فذاع صيته حتى ((طبقَ الأرضَ رفعةَ ذكرٍ، وسبق أهلها بكل نزعة فِكْرٍ))[١٣].

ويلخص ابن خاقان مسيرته، فيؤشر حالة اللااستقرار وتقلب ابن السِّيد فيها بقوله ((وتصرف ابو محمد هذا مع الأيام كيف تصرفت، وجاراها حين اقبلت وحين انحرفت، فخدم الرِّياسات، وابرم عُرى السياسات، ونفق وكَسَد، ووقف وتوسد، ثم بَرِمَ بذلك الحَيْفِ، فعَدل عن ذلك الخَيْفِ، وقعد للتدريس))[١٤]، في آخر عمره واستقرار أمره.

وكان راوياً ثقة عالماً بالآدب، كما يصفه ابن بشكوال (( أنه روى عن أخيه علي بن محمد، وكان عالماً بالآداب واللغات مستبحراً فيها مقدماً في معرفته واتقانها، يجتمع الناس اليه ويقرأون عليه ويقتبسون منه، وكان حَسَنَ التعليم جيد التلقين، ثقة ضابطاً، وألف كتباً حساناً))[١٥].

وعنه قال الضبي في المعنى ذاته ((إمام في اللغة والآداب، سابق مبرز، وتواليفه دالة على رسوخه واتساعه ونفوذه وامتداد باعه، مولده سنة اربع واربعين واربعمائة، وتوفي في رجب الفرد في عام إحدى وعشرين وخمسمائة، وكان ثقة مأموناً على ما قيد وروى ونقل وضبط))[١٦]، ولابن بسام وابن سعيد مثل ذلك الكلام عن ابن السِّيد().

وقد افاد الشاعر من هذه العلوم الدينية والاطلاع الادبي وسعة الثقافة، فتجسدت في شعره ضمن اشعار الزهد التي ارتسمت بزهده الحياة وما فيها، ومحاولته الاستئناس بالأخرة حين يلاقيها، وهو بين الحين والآخر يُعرّج الى غرض الزهد والتصوف في شعره، وربّما كان ذلك أكثر حين تشتد عليه الحياة وتصعب الظروف وتضيق حلقاتها، كما تشير الى ذلك مسيرته، فيستذكر الآخرة ويزهد في الدنيا.

ويبدو أنّ هذه المحطة كانت الاساس الذي ارتكز فيه ابن السِّيد لاكتساب العلوم المتنوعة والتعلم من اساتذته في مختلف المجالات الثقافية ولا سيما الدينية منها، التي انعكست بصورة واضحة في اشعاره، فضلاً عن ثقافته الأدبية الواسعة التي تجلت بصوره الشعرية الجميلة، المحاكية لصور الشعر الجاهلي والمشرقي، كل تلك الروافد اسهمت بشكل واضح بتشكيل ثقافة الشاعر وتنوعها، فقال في الاغراض كلها وابدع في مختلف المجالات، فكانت ثقافته الدينية تمده بالكثير من روافد الابداع حتى تمثل ذلك بزهدياته المتميزة بالتذكير بالأخرة من خلال وصف اشياء دنيوية محسوسة، فاستثمر الماديات للتعبير عن المعنويات، من ذلك قوله يصف حمّاماً مستذكراً بحر ناره وبرد هوائه يوم القيامة وما فيه من نعيم وشقاء[١٧]:

| | |
|---|---|
| **أرى الحمَّام مَــوْعِظةً وذِكرى** | **لكُلِّ فتًى أرِيبٍ ذي ذكاءِ** |
| **يُذكّرُنا عـذابَ ذوي المعَاصِي** | **وأحياناً نعـــــيمَ الأتقياءِ** |
| **شَقَا هجْرٍ يشوبُ نعيمَ وصْلٍ** | **وحَرُّ النّارِ في بَرْدِ الهواءِ** |

هنا يأخذ منه العبرة والعظة، مذكراً المتلقي بذلك اليوم، فقد حاول ان يستثمر هذا الشيء المادي البسيط لإيصال صورة معنوية أكبر يذكر فيها بيوم الحساب.

وقد يمزج زهده بجانب فلسفي، يبني عليه أفكاره، متأثراً في ذلك بآراء ابي العلاء المعري الفلسفية، متبعاً طريقته الفنية، من ذلك قوله[١٨]:

**تَـتِـيهُ وقـــــد أيقـنتَ أنّكَ مُمكنٌ فكيــفَ لـو استيقـنتَ أنّكَ واجبُ**

**وهل لّكَ عنْ عَدنٍ إذا مِتَّ أو لَظًى مَحِيصٌ يُرجّى أو عنِ اللهِ حاجبُ؟!**

ولم تقتصر ثقافة ابن السِّيد على جانب وأحد أو رافد معين، ويمكن ان يتضح ذلك من خلال صوره الشعرية التي حاكى فيها الاشعار الجاهلية والمشرقية، فلم يركن الى الجانب الديني وحده، إنّما امتاز بتعدد روافده، مما أثرى صوره الشعرية، فكما عالج الزهد، خاض كذلك في اللهو والمجون، فوصفها ووصف السّاقي وجلسة الانس والاحباب، كما في قوله[١٩]:

**يا رُبَّ ليلٍ قـــدْ هتكتُ حِجابَهُ بِمُدامةٍ وقّـــــادةٍ كالكوكبِ**

**يسعى بها أحوى الجُفُونِ كأنّها مِنْ خدِّه ورُضابِ فِيه الأشْنَبِ**

**بَدرانِ: بدرٌ قـــد أمِنْتُ غُروبهُ يسعى بـــــبدرٍ جانحٍ للمَغرِبِ**

**فإذا نَعِمْتَ بِرَشفِ بَـــدرٍ غاربٍ فانْعَمْ بَرَشْفةِ طالعٍ لـــمْ يَغرُبِ**

وقد يتخذ الشعراء من الخمرة تسلية (( وكان بعض الشعراء يرون في الخمرة عزاء وسلوى، ويؤكد هذا جيداً ما قيل من مَثَلٍ يتصل بحالتها العارضة))[٢٠]، من ذلك قوله[٢١]:

**سَلِّ الهمُـــــومَ إذا نَبَا زَمَنٌ بمُدامةٍ صَفْراءَ كالـــــذّهبِ**

ابتدأها بقوله ((سلِّ الهموم ...)) متخذاً منها وسيلة للنسيان، عاكساً حالة الحزن التي يعيشها، ذاكراً جفاء الزمان وكثرة خطوبه، وقد اشاد بذلك ابن خاقان، فيما نقله عنه المقري في أزهار الرياض، قوله((وما ابدع قوله في وصف الراح، والحض على النبذ للهموم والاطراح، بمعاطاة كئوسها، وموالاة تأنيسها، ومعاقرة دنِانها، واهتصار ثمار الفتوة وأفنانها، والاعراض عن الايام وانكادها، والجري في ميدان الصبوة الى ابعد آمادها، ... ولله هو فقد ندب الى المندوب، وذهب الى مداواة القلوب، من النُّدوب، وإبرائها من الآلام، ... وعلاجها من هموم وفِكر، في زمن حَلِيَ عاطلهُ، وجُلِّي في أحسن الصور باطله، ... فلا استراحة إلا في معاطاة حميّا، ومؤاخاة وسيم المحيّا))[٢٢].

ولا يُستبعد من أهل الأندلس ولاسيما الفقهاء منهم معاقرة الخمر[٢٣]، وإن ارتسمت ثقافتهم بالجانب الديني أكثر من غيره، فربّما كان وصفه هذا عن واقع، أو ربّما كان على سبيل مسايرة التيارات الأدبية من حيث الخوض في وصفها وإن لم يعاقرها، (( وإذا بدا لنا في القرن العاشر أنّ قاضياً مثل صهيب بن ماني يشرب النبيذ، حالة فريدة، فان الشراب في القرن الحادي عشر سواء في أيام الفتنة أم في عصر

ملوك الطوائف اصبح عادة شائعة، واصبحت كلمة (نبيذ) مرادفة لكلمة (خمرة) ))[٢٤]، ويبدو من اشعار ابن السِّيد أنه لم يتورع في مختلف سنوات عمره عن شربها، فوصفها ووصف الساقي ومجالسها وصفاً دقيقاً، وصف معايش لمجالسها معاقر لها، متخذاً منها في بعض الاحيان وسيلة للتسلية ودفع الهموم والملل.

وكان للشعر الجاهلي أثره في شعره، من حيث اسلوبه ومعانيه التي طغت على اسلوب الشاعر، من ذلك قوله متغزلاً[٢٥] :

**تأوّبه مـــن هـــمّه مـــــــا تأوّبا ... فباتَ عـــــلى جَمرِ الأسى مُتقلّبا**
**مَرَتْ مُـــــزنَ عينيه غـــداة تحمَّلوا ... عواصفُ ريحِ الشّوقِ حتى تصبَّبَا**
**دُمُوعٌ هتكنَ الستّر عن مُضمرِ الجَوَى ... وأبدين مـــن سِرّ الهوى ما تغيّبا**
**خليليّ مـــا لي كُلّـــــما لاحَ بارقٌ ... تذكـــــــرتُ برقاً بالعقيقِ وزينبا**
**ومن لـــــي برد الخلّ إذ جدّتِ النّوى ... به وبـــوصلِ الحبلِ أنْ يتقضّبا**

قال عنها ابن خاقان، فيما نقله عنه المقري في ازهار الرياض (( وقال يتغزل، وقد تصرّف فيه تصرُّف غيلان ميّ ، ووصف كلّ حوّاء وحيّ، وذكر العشق وارتاد الابداع حتى عَدَ به مِصره، فأجاد معانيه، وأشاد مبانيه))[٢٦]، فهو غزل يذكر فيه رحيل الظعن والشوق للحبيب وما يعانيه الشاعر من لوعة جراء ذلك، إنّها دلالات تعكس معنى الحياة والموت بوجود الحبيب وفراقه، فهي معنويات وظفها الشاعر لتجسيد حالته القلقة، كما افاد منها الشاعر الجاهلي قديماً للتعبير عن مدلولاته، التي تعكس انعدام الحياة وغياب السعادة برحيل المحبوب، إذ لا سلوى له سوى العيش بذكريات الماضي السعيد والتشوق للأيام الماضية التي يجد فيها السعادة المعنوية، عله يلتقي الحبيب إذ هو مصدر الحياة ودوام السعادة، وفي فراقه موت معنوي للشاعر وحزن لا انقضاء له، وهذه الحال ربّما تتناسب مع الحالة التي يعيشها ابن السيد الى حدٍ كبير، إذ ((تغدو المرأة بذلك رمزاً للاستقرار والامان الذي ينشده الشعراء في ظل ظروفهم القاسية، لذا نجد حرص الشعراء على مواجهة حالة الموت واليأس والانكسار الذي يحيونه، بمعالم الحياة والأمل التي ترمز لها صورة المرأة))[٢٧] من خلال توظيفها في قصائدهم،.

وكثيراً ما كانت تجارب الحب التي تعبر عنها مطالع قصائدهم، ذات صلة وثيقة بواقعها الاجتماعي العام لذلك (( ارتبط شعر الغزل بواقع احداث عصر الشاعر وخرجت تلك التجربة بما تحمله من ألم وحرمان الى التعبير عن هموم الشاعر وطموحاته وتأملاته فيما يجري حوله من احداث سياسية واجتماعية وفكرية))[٢٨]، لما لعنصر المرأة من وظيفة ايحائية للتعبير عن معاناة الشعراء وآمالهم.

ومن ذلك أيضاً تأثره بالأسلوب المشرقي في الغزل والتشبيب بالنساء وهو ضمن الغزل العفيف الذي شاع في العهد الاموي، إذ يتناول صفات المرأة المعنوية لا الحسية واللوعة والبكاء من العشق، وتعارض ذلك مع المشيب، فقال متغزلاً[٢٩]:

**خَليليِّ مـــا للرِّيحِ أضحى نَسِيمُها ... يُذكّرني ما قـد مَضَى ونَسِيتُ**
**أبعدَ نذير الشّيبِ إذ حَـلَّ عارِضي ... صبوتُ بأحداقِ المها وسُبيتُ**
**ولي سكنٌ أغرى بي الحُزنَ حُسنُه ... جَرِئٌ عـلى قتلِ المُحبِّ مُقيتُ**
**تُلاحظُني العَينانِ مـــنه برحـــمةٍ ... فأحيا ويـــــقسُو قلبُه فأمُوتُ**

وإذا ما عكسنا هذه المعنويات على حياة الشاعر فإنّنا أمام مأساة يعيشها في ظروف أقل ما يمكن أن توصف بالصعبة في حالة عدم الاستقرار وكثرة الترحال والخوف الدائم والقلق المستمر، وهجوم الشيخوخة والمشيب (( فليس من شك في ان حالة اليأس التي يثيرها في النفوس ما هي إلا تعبير عن موقف انساني عام ازاء هذه الظاهرة الخارجية، وغالباً ما يصدر هذا اليأس عن الخوف من الموت))[٣٠]، ولاسيما بعد موت أخيه ابي الحسن علي بن محمد المعروف بالخيطال (ت٤٨٠هـ) في سجنه، اثر مؤامرة حيكت ضده، فكان نتيجتها ان قتل صبراً في سجن قلعة رباح، على يد قائدها حريز بن حكم بن عُكّاشة والي القادر بن ذي النون في طُلْيطُلَة.

وعليه فقد كان لتنوع روافد الشاعر الثقافية الأثر الواضح في شعره، فظهرت في جوانب عديدة، كالصورة الشعرية والاسلوب وفي الالفاظ والمعاني والأفكار والأخيلة الشعرية، كل ذلك عززه سعة اطلاعه واستيعابه والافادة الايجابية من ذلك كله، مما انعكس بالإيجاب كصورة فنية متكاملة في شعره.

**٢- المحطة الثانية : طُلْيطُلَة**

هكذا كانت المحطة الأولى من حياة ابن السيد، دراسة وتحصيلاً علمياً وثقافياً متنوعاً، واستزادة دينية فقهية مستبصرة، فكانت كل تلك العلوم متاعه في رحلته، وسنده الذي عليه اعتمد في قضاء حاجاته، إذ إنّ مهنته العلم وقول الشعر، وقد حاول بهم التقرب من الحكام لينال الرضا والامان، فالمعروف عنه أنّه لم يكن متكسباً في شعره، لكنه كان طالب امان وباحثاً عن استقرار صعب الحصول عليه في ظل ظروف مضطربة وصراعات لا نهاية لها، وهذا ما يمكن ان يُلمس من قوله[٣١]:

**ولو لم تُفِد مِنَّا سِوى الشِّعرِ وحدَه ... لحُقَّ لنا بِرٌّ علـــــــيهِ وإحسانُ**
**فكيف ولم نجعل بها الشّعر مَكسباً ... فيُوجبَ للمُكدي جَفَاءٌ وحِـــرمَانُ**
**ولا نحنُ ممّن يرتضي الشِّعرَ خُطَّةً ... وإن قَصّرتْ عن شأوِنا فيه أعيانُ**

إذن اضطراب الاوضاع وتقلب الاحوال السياسية، تجبر المتقربين من السلطة على الرحيل الدائم، إذ لا قرار لهم بتقلبها، فهكذا اجبرت الظروف السياسية وتقلباتها في بطليوس وكثرة الحروب، ابن السِّيد الى شد رحاله عنها والنزول هذه المرة في طليطلة التي كانت تحت حكم بني ذي النون، فعاش في كنفهم مدة من الزمن، وامتدح ملوكهم ووزراءهم[٣٢]، وربّما يحاول في كل ذلك ايجاد مكانة له بين صفوف المقربين من الحكام، وهذا ما حظي به فعلاً، فكان من المقربين.

وقد طاب له العيش في طليطلة عمراً، وذلك ما تؤكده اشعاره واعتزازه في شعره بنفسه والتأكيد على صدقه وعدم مبالغته، من ذلك قوله في مدح القادر بالله يحيى بن ذي النون (ت ٤٨٥هـ) صاحب طليطلة، في قصيدة مطلعها[٣٣]:

**ضَمانٌ عـــلى عَينيكَ أنِّـــي هَـــائِمُ تَصَدُّعُ قلـبـــي حولَ وصلِكَ حائِمُ**

ثم يُعرّج على المديح ويبالغ:

**لقـد بَخسوكَ الحـــقَّ جهلاً وأخطَأتْ بما رَجَمَتْ فيكَ الظُّنونُ الـــرَّواجمُ**
**كما بخسُوا يحيى بن ذي النُّونِ حقَّه فقالوا ابنُ سُعْدَى في النَّوالِ وحَاتِمُ**
**وقالوا حكى الضِّرغامَ في الرَّوعِ بأسهُ وذلك مـــا لا تدَّعـيه الضَّـــراغِـمُ**
**وقالوا هـــو الدَّهرُ الذي ليس دُونه حِمًى وهو المخدوم والـدَّهر خَادِمُ**

ويكثر من المبالغات ويتعدى في مدحه الامير الى عائلته ذاكراً طيب أصله، خاتماً بالفخر بنفسه والتأكيد على صدق معانيه التي اليها أشار في مدحه[٣٤]:

**ودُونكَ بِكراً مـــن ثنائي زفَفتُها إليكَ كـــما زُفَّ الغَواني الكَرَائِمُ**
**وما أنتَ ذُو فـقْرٍ لِمَا أنا واصِفٌ ولا أنا ذُو إفـــكٍ بـما أنا زاعِمُ**
**سَجَاياكَ تُلي الفخرَ والدّهرُ كاتبٌ وعلياكَ تُعطي الدُّرَّ والشِّعرُ ناظِمُ**

لقد (( رسم الشعراء لهذه البلاطات لوحة زاهية من الثناء والإطراء، سواء في ذلك مدائحهم أم مراثيهم، وكان دورهم يضطرهم رغم كل شيء الى المجاملة دائماً ... وكان هناك تباين واضح بين الاشخاص والمديح الموجه اليهم ))[٣٥]، لكن ابن السِّيد يصر أن مديحه بعيد عن المجاملة والتلفيق، قريب من الحق والواقع، وهذه حال اغلب الشعراء في مدائحهم.

ويسعد في حياته في طليطلة، ويبتعد عنه القلق والخوف قليلاً، فيأنس ويطرب، وهذا ما يمكن ان نقرأه من خلال شعره الذي يصف فيه مجلس لهوٍ وما يحويه من غلمان وأباريق شرب فيرسم ذلك شعراً مادحاً من خلاله الملك الظافر بن ذي النون، مغالياً ومعظماً[٣٦]:

**ومجلِسٍ جَـــمَّ الملاهي أزهَرَا**
**ألذَّ في الأجفانِ من طعمِ الكرى**
**لم تـــــرَ عيني مِثلهُ ولا ترَى**
**أنفسَ في نفسي وأبهى منظرا**
**كأنّما الابريقُ حينَ قـــرْقَـــرا**
**قد أمَّ لثمَ الكاسِ حينَ فَـــغَـرا**
**وحشيّةٌ ظلّتْ تُناغي جُـــؤذرا**

ثم يمدح الظافر ويبالغ:

**أو عابدُ الرحمنِ يــوماً ذُكِـرا**
**فَنَمَّ مِسكاً ذكـــــرهُ وعَنـبْرا**
**الظافرُ الملكُ الذي مَـنْ ظَفِرا**
**بقُربه نَـــــالَ العَلاء الأكـبرَا**
**لو أنّ كِسْرَى راءه أو قَيصرا**
**هلّلَ إكباراً لـــــــه وكَبّـــرا**

يمكن ان نلحظ المبالغات المفرطة التي يلتجئ اليها الشاعر في مديحه، فضلاً عن طول نفسه في تلك القصائد مقارنة بغيرها من القصائد التي قيلت في اغراض اخرى، إذ أنه يستحضر طاقته كلها خدمة لغرضه الاساس في شعره وهو المديح.

وهكذا بدت الحياة مع ابن السِّيد في طليطلة، سعيدة مستقرة، بعيدة عن القلق والخوف الذي يربك حياته، وهذا أكثر ما كان يبحث عنه، فأكثر من شعر المديح ووصف مجالس الأنس التي تعكس هذه الحالة من الاستقرار النسبي والاطمئنان الذي يرنو اليه الشاعر(٣٧).

لا استقرار ولا اطمئنان بالقرب من الحكام، وهذا ما يبدو قد حلَّ بابن السِّيد، فأخذت اشعاره تشكو الاقصاء، وتفيض بالاستعطاف وطلب الرضا، فيتحول ذلك الانس في ظل الظافر بن ذي النون، الى بُعدٍ وجفاءٍ وشكوى واستعطاف، إنّه القلق الذي لا يفارق الشاعر، والخوف من المجهول، فتعود اشعاره الى تجسيد ذلك بحرقة وألم معبرين(٣٨):

**أبا عامرٍ أنتَ الحبيبُ الـــــى قلبي ... وإن كُنْتُ دهراً مِنْ عِتابكَ في حَرْبِ**
**أتُعـــرضُ حتَّى بالخيالِ لدى الكرى ... وتبخلُ حتّى بالسَّلامِ مَـــــعَ الرَّكبِ**
**كأنّي أخـــــو ذنبٍ يُجازى بـــــذنبه ... وما كان لي غيرَ المودّة مِـن ذنبِ**
**فيا ساخطاً هل من رُجُوعٍ الى الرّضا ... ويا نازحاً هل من سبيلٍ الـى القُربِ**
**ويا بائناً بـــــان العـــــزاءُ ببينه ... فأصبحتُ مسلوبَ العـزيمةِ والقلبِ**
**أتترُكُني رهناً بـــــأيدي حـــــوادثٍ ... غدوتُ لها نهباً ومـــا كُنتُ بالنّهبِ**

ويأخذ الحزن مداه من نفس ابن السِّيد في رثاء ابي محمد عبد الله بن لبّون اخي ذي الوزارتين القائد ابي عيسى بن لبُّون، إذ يرثي فيها نفسه، وما حل به وتكالب الهموم عليه حتى ضاقت به الأيام والأرض بما رحبت، فصار الترحال له عادة، إذ لم يجد الاستقرار المنشود ولا الامان المطلوب ولا الاطمئنان الذي عنه يبحث، فنسمع صوت الحكمة في مطلعها، تُنشد حصاد سنين العمر، فيقول(٣٩):

**لِلْمرءِ فـــــي أيّامِه عِـــبَرُ ... والصَّفْوُ يَحْدُثُ بَعْدَه كَـدَرُ**
**خَرَسُ الزَّمانِ لمـــنْ تأمَّلهُ ... نُطقٌ وخُبْرُ صُرُوفهِ خَـــبَرُ**

**نَادى فأسْمعَ لوْ وَعَتْ أُذنٌ وأرى العواقبَ لوْ رأى بَصَرُ**

ثم يدخل في منعرج رثاء الذات، فنسمع صوت انين الشيب وألم لوعته، إذ لم تجنه الا المهموم:

**قالتْ: أرى ليْلَ الشَّبابِ بدتْ للشَّيبِ فـيه أنجُـمٌ زُهُـرُ**
**فأجبتُها لا تُكـثِري عَجَباً مـن شَيبةٍ لـم يَجنها كِبرُ**
**لكن طويتُ من الهُمُومِ لَظًى أضحى لَها في عارِضي شَرَرُ**

وهو لا يُرجع بياض شعره الى مضي سنوات عمره وكبره كما هي الظروف الطبيعية للإنسان، ((وإنّما لمّا امتلأ قلبه همّاً وحُزناً صارت الهموم والأحزان في داخله كأنّها نيران شديدة بيضاء فظهر في عارضيه شرَرٌ منها))[٤٠].

ويبدو من اشعاره أنّ الحال في ظل ممدوحه الظافر بن ذي النون لم تكن مستقرة، إذ هي بين تقريب واقصاء، وبين أُنس وسُهاد، وهذا ما تكشف عنه مقدمة قصيدته في مديح الظافر حين قال[٤١]:

**لعلّـكُمُ بعـدَ التَّجنُّبِ والهَـجرِ تُديلونَ مِنْ بُعدٍ وتَشْفُونَ مِنْ ضُرِّ**
**فإنَّ الـذي غادرتُمُ بـين أضلُعي يَزيدُ على مَرِّ الزَّمـانِ ويستشري**
**ولم تُنبِكُمْ عنّي النَّـوى غيرَ أنّكم رحلتُم من الجفنِ القريحِ الى الفِكرِ**
**وأستعطِفُ الأيامَ فيكـم لَعـلَّها تُعيدُ اللّيالي السَّابقاتِ كـما أدري**
**وأطمَعُ مِنها في الوصالِ ولم أزلْ عَليماً بما يؤثِرنَ مـن شِيمِ الغدرِ**
**ويُوحِشُني حُسنُ الزَّمـانِ لنأيكُمْ وأنْ كُنتُ مأنوسَ الجـوانحِ بالذِّكرِ**

الملاحظ في هذه المقدمة أنّ الشاعر قد ساقها للشكوى من البعد والهجر وما يعانيه من ذلك، إذ الظاهر للوهلة الأولى أنّها مقدمة تقليدية قد اتى بها ابن السيد تماشياً مع البناء المنهجي لقصيدة المديح التي يتبعها الشعراء في بناء قصائدهم، الا إنَّ المتمعن في ظروف ابن السيد وما يعانيه من ابعاد واقصاء يرى أنّ هذه المقدمة مقصودة لذاتها، إذ تفيض لوعة وشكوى من عناء الهجر والابعاد وهي تتطابق تماماً مع حاله مع ممدوحه الظافر في تلك المرحلة، فجاءت معبرة عن حاله منسجمة مع مقصده، فشكى فيها وبكى وعاتب فأجاد العتاب والشكوى.

إنّها ابيات مشحونة بالآهات وزفرات الألم، أطلقها الشاعر معبراً عمّا يخالج دواخله من مشاعر الحسرة وألم الفراق وخوف الاقصاء وبداية رحلة جديدة نحو مجهول ربّما لا يُرض مُستقره أطماح ابن السّيد الباحث عن الامان من تقلبات الدهر، وهذا ما يصرح به في قوله عندما يصل الى مدح الظافر[٤٢]:

**عَجبتُ لأيامٍ تَـداعَتْ خُطُـوبُها لِتَثْلِمَ مِنْ غربي وتَقدحَ في وَفري**
**ولم تَدْرِ أنّي في حِمى الظَّافِرِ الرّضا أرُدُّ العِدَا عنّي بصَمْصامتَي عَمْرِو**
**حـلـلـتُ جَناباً مِنه مَـدَّ ظِـلالـه عليَّ وأعطاني أماناً مِـنَ الدَّهرِ**
**أرى عابدَ الرحمنِ رَحمةَ مـن قسَتْ عليه الليالي، أمنَ منْ ريعَ بالفَقْرِ**

إذ لم يسلم الشاعر من المكائد والدسائس ومحنها، فيتساءل متعجباً من خطوب الأيام وكيف تدور عكس ما هو عليه من علو همة وسلامة عرض ورفعة شرف، كيف لا يتعجب وهو في حمى الظافر الذي تعهده من تقلب الأيام، وليس تساؤله هذا الا تذكيراً للظافر بوعدٍ ربّما اعطاه للشاعر، بأمان لا تغير له وإن جارت عليه الأيام وتغيرت، وتكالب عليه الأعداء، فمزج في مدحه العتاب والشكوى، محاولاً تجديد الوصال والتذكير بالوعود.

وربّما هذا المطلب هو ما كان يلح عليه الشاعر في قصائده المدحية، فنراه يعيده مع القادر بن ذي النون، في مدحه في قصيدة مطلعها[٤٣]:

**خَلِيليَّ هَلْ تُقْضى لُبانةُ هَائِمِ أمِ الوجـــدُ والتَّبريحُ ضَـــربةُ لازِمِ**

الى أن يصل الى قوله:

**أبا حَسَنٍ أنِّي بِودِّكَ مُعْصِمٌ فهل أنتَ يوماً مِنْ جَفَائكَ عَاصِمي؟**

إذ يتساءل بقلق عن مدى تمسك ممدوحه به، مع إعلانه تمسكه بممدوحه **(مُعْصِمٌ)**، فهو تسائل غير المطمئن مقابل التسليم الكامل له، وربّما يؤكد هذا القلق قوله:

**جَعَلتُكَ في نَفسِي وقلبي مُحَكَّماً لِترضى فقدْ أصبْحتَ أجْوَرَ حَاكِمِ**

**أتَظلِمُني وُدِّي ومـــا زَالَ فِيكُمُ قَرِيعُ عُلاً يُرْجى لـــــردِّ المظَالِمِ؟!**

إنّه قلق مبطن بنوع من العتاب والتساؤل الذي يبديه الشاعر بعد مقدمة غزلية منسجمة مع مقصده.

المتتبع لإحساس القلق المتصاعد في اشعار ابن السيد، يمكن إن يقف على حالة عدم الاستقرار والخوف الذي رافق حياته من المجهول الذي ينتظره، وهذا ما حصل فعلاً بعد مقتل أخيه ابي الحسن علي بن محمد ابن السيد البطليوسي المعروف بالخيطال (٤٨٠هـ)، الذي اتهم بالخيانة والعمالة للمتوكل بن الافطس صاحب بطليوس، وخوف ابن السيد من أن يؤخذ بذلك الذنب، فضلاً عن الاضطرابات السياسية واشتعال الفتن، كل تلك الظروف من عدم الاستقرار التي لا تنسجم وما يبحث عنه ابن السيد دفعت به الى الرحيل مجدداً، فكانت محطته الجديدة هي سهلة بني رزين.

### ٣- المحطة الثالثة: شنتمرية الشرق / سهلة بني رزَين

نزل سهلة بني رزين، وكان صاحبها ابو مروان عبد الملك بن رزين (ت ٤٩٦هـ)، الملقب بذي الرياستين حسام الدولة، وقد ورث الحكم عن ابيه سنة( ٤٣٦هـ)، قال عنه الفتح بن خاقان واصفاً اياه، فيما نقله عنه المقري في ازهار الرياض ((كانت دولته مَوقِف البيان، ومَقذِف الأعيان، ومُحَصَّب جِمار الآمال، وأعذب موارد الأجمال، لولا سَطَواته الباطشة، ونكباته البارية لسهام الرُّزء الرائشة، فقلَّما سَلِم منها مُفاد الأموال، ولا أحمدَ عُقباه معه صاحبٌ ولا وال))[٤٤]، وقد مدحه ابن السيد أول امره فـ (( فرفعه أرفع محل، وانزله منزلة أهل العَقد والحل، وأطلعه في سمائه

وأقطعه ما شاء من نَعمائه، وأورده أصفى مناهل مائه، وأحضره مع خواصّ نُدمائه))[٤٥]، لكن ابن السيد ((لم يدرِ أنَّ بعد ذلك الشهد شُربَ عَلْقم، وأن السُّمَّ تحت لسان ذلك الأرقم))[٤٦].

وهنا في ظل هكذا موصوف، لا يُعتقد ان ابن السيد قد يبحث عن الاستقرار بقدر بحثه عن الامان والسلامة من غدر ابن رزين، الذي عرف عنه الغدر وشدة البطش، إذ كان ميالاً للتنكيل، فكيف يمكن لشخص ان يبحث عن الاستقرار في ظل مثل هكذا حاكم، فيكفيه أن يبحث عن السلامة والنجاة.

ولكن يبدو أنّ مقدرة ابن السيد الفنية قد اجبرت ابن رزين على تقريبه وجعله من الخاصة، إذ مدحه بقصيدة ذات مقدمة غزلية تشكو الفراق والبعاد وترجو الوصال، وليس في ذلك إلا حالة ابن السيد، فهي تعكس حالة اليأس والتعب التي يعيشها الشاعر، خصوصاً إذا علمنا أنّه لا حاجة مادية له يطلبها، إنّما هي حاجات معنوية، فهو رجل باحث عن الامان والاطمئنان، الذي ربّما يبدو مستحيلاً في ظل ابن رزين، استناداً الى سيرته الدموية في الغدر والتنكيل، فيكتفي شاعرنا منه بالأمان لا غير[٤٧]:

**عَسى عَطفةٌ مِمَّنْ جَفاني يُعيدُها فتُقضى لُباناتي ويــدنُو بعيــدُها**
**فــقد تُعتِبُ الأيــامُ بــعدَ عِتابِها ويُمحى بوصلِ الغانياتِ صُدُودُها**
**وكم للصَّبا عندي يدٌ لستُ جاحداً لها إنَّ كُفران الأيــادي جُحُــودُها**

ولا ينسى ابن السيد ان يذكر إنعام ممدوحه عليه، كما لم ينس ان يُقر بالعبودية له، مع أنّه غير محتاج الى مثل هذا الاقرار، إلا أنّه يعترف به مذلاً مذعناً، وهذا بذاته ربّما يعكس حالة الخوف من الممدوح وإن حمد له تقديمه وجعله من خاصته إلا ان هذا لا يعني انه في أمان، مما دفعه الى الاقرار بالعبودية، مكرراً اياها بصورة اراد منها التأكيد على المقصد الإقراري وبيان صدقه في ذلك، جاذباً انتباه ممدوحه اليه:

**سرى بارقٌ مـــن بِشره غَيرُ خُلّبٍ إلى أرضِ آمالي فأورقَ عُودُها**
**وبَوأني مِن مجده فـــــي مكانةٍ سُعودُ النُّجُوم الزَّاهراتِ صَعِيدُها**
**فيا أيُّها المولى الـــــذي أنا عبدُه وقِدماً رجا طولَ الموالي عَبيدُها**
**أصخْ نحو حُرِّ الشِّعرِ من عبدِ أنْعُمٍ بَدائعُه مـــــا زالَ مِنكَ يُفيدُها**

**٤- المحطة الرابعة: سَرَقُسطة**

لم يطل مقام ابن السيد في شنتمرية، إذ لم تستقر به الحال ولم يطب له الوصال، فرحل عنها الى سرقسطة، ليجد فيها الترحيب والاحسان من حاكمها المستعين بالله بن هود الذي عوّضه عمّا لقيه من خيبة أمل عند ابن رزين، ويصف ابن بسام دخوله اياها في الذخيرة فيقول: ((ودخل سرقسطة أيام المستعين وهي زهرةُ الدنيا وفتنة المَحيا ومنتهى الوصف، وموقف السرور

والقَصْف، فنزل منها بمثل الخَورنقِ والسِّدير، وتصرَّفَ فيها بين روضة وغدير، وكان فرَّ من ابن رَزين، فِرارَ السرور من نفسِ الحزين، وخلص من اعتقاله وخُلوص السيف من صِقاله))[٤٨]، فاستقر وشعر بالأمان وابعد عن تفكيره القلق الذي ما فارقه في ظل ابن رزين، إذ كان قلقاً مشوباً بالخوف، وها هو ذا ينعم بما بحث عنه، تقريبٌ واحسانٌ ورضا ارتسم في اشعاره المدحية في ظل ممدوحه المستعين بالله، من ذلك قوله مادحاً اياه[٤٩]:

**إلـــى مَلِكٍ حاباه بالمجـدِ يُوسُفٌ ... وشادَ له البيتَ الـــرفـيعَ سُليمانُ**
**إلـــى مُستعينِ بـــالإلـــهِ مُؤيَّـــدٍ ... له النَّصرُ حِـــزبٌ والمقاديرُ أعوانُ**
..... .....
**فوجهُ ابنِ هودٍ كُلّما أعرضَ الورى ... صحيفةُ إقبـالٍ لـــها البشرُ عُنوانُ**
**فتى المجدِ في بُرديه بـدرٌ وضَيغَمٌ ... وبَحرٌ وقُدسٌ ذو الهضابِ وثهلانُ**
..... .....
**فـــيا مُستعيناً مُستعاناً لـــمن نـبا ... بـــه وطَنٌ يـــــوماً وعضّتهُ أزمانُ**

والملاحظ أنّ ابن السّيد لا يبتعد عن واقعه المعيش، إذ غالباً ما تجد حاله قد تجسدت في أشعاره، فتجد القلق والخوف، وتجد السرور والسعادة، في شعره انعكاسات طبيعية لما في حياته، فغالباً ما ترتسم مقدمته بتوافق منطقي مع حاله، فنراه يصور فيها حزنه وعدم استقراره وفيض الألم الذي يلف حياته[٥٠]:

**هُمُ سلَبُوني حُسنَ صبريَ إذ بانُوا ... بأقمارِ أطـــواقٍ مَطالِعُها بَـــــانُ**
**لَئِن غادروني باللّوى إنَّ مُـهجتي ... مُسايرةٌ أظعانـــــهم حيثُما كانـــوا**
**سَقَى عَهدهم بالخَيفِ عَهدُ غَمائمٍ ... يُنازِعُهم مُزنٌ مِـنَ الدَّمـــــعِ هَتَّانُ**
**تنكَّرتِ الدُّنيا لنا بـــعـد بُـــعدِكُمُ ... وحَفَّتْ بِنَا مِنْ مُعضلِ الخطبِ ألوانُ**

بكاءٌ ولوعة فراق وترحال، كلها أمور تقليدية في بناء مقدمة القصيدة، إلا انّها تنسجم والحالة الشعورية التي يعيشها ابن السّيد، ومصداق ذلك أيضاً قوله معاتباً لممدوحه المفَارق ابن رزين الذي وعده ولم يفِ له وطال الانتظار ولكن دون جدوى[٥١]:

**أناختْ بنا فـــي أرضِ شنْتَ مَريّةٍ ... هواجِسُ ظَنٍّ خُنَّ والظَّنُّ خَـــوَّانُ**
**وَشِمنا بُروقاً للـــــمواعيدِ أتعبتْ ... نواظِرنا دهراً، ولم يَهـــــم هَتّانُ**
**فسرنا وما نُلوي عـــــلى مُتعذّرٍ ... إذا وطنٌ أقصاكَ آوتكَ أوطـــانُ**
**رحلنا سَوَامَ الحمدِ عـــنها لغيرها ... فلا ماؤها صَدَّا ولا النَّبتُ سعدانُ**
**جَفتْنا بِـــــلا جُرمٍ كـــأنّ مَودَّةً ... ثنى نحونا مِنها الأعِـــنّةَ شنانُ**
**ولو لم تُفد مِنّا سِوى الشِّعرِ وحده ... لحُقَّ لنا بِرٌّ عليه وإحســـــانُ**

**فكيف ولم نجعل بها الشّعر مكسباً فيُوجبَ للمُكدي جَفاء وحِـــرمانُ**
**ولا نحنُ ممّن يرتضي الشّعرَ خُطّةً وإن قَصَّرتْ عن شأوِنا فيه أعيانُ**

هجاء صريح وإن سُبق بعتاب مبطن بهجاء لابن رزين على مواقفه ومطاله وسوء ظنه، مما دفعه للهروب منه، والذي يؤخذ على ابن السّيد أنّه مداح هجاء في ذات القصيدة، وهذا لا ينسجم مع منهج المدح الصادق، وربّما يعكس صورة سلبية عنه لدى ممدوحه الجديد، خصوصاً أنّه قد كان مادحاً فيما سبق لابن رزين، فهي خطوة غير موفقة من الشاعر في هذا المجال، ولكن ما كان يعتصر في نفسه من ألم سوء ظنٍ به وعدم الوفاء بالوعود من ممدوحه السابق ربّما دفعته دون شعور الى نفث هذه الحسرات بصورة عتاب مبطن بهجاء يطفو على سطح عتابه، فهجاء الماضي ونقده _ ابن رزين _ نكر للإحسان وإن قل، ومدح الحاضر دون معرفة مخصوصة _ المستعين _ نفاق يستبصره الممدوح، وقد لا يكون لصالح الشاعر، ولكن ربّما تشفع له المكانة العلمية والمعرفة الدينية، ليجد له حضوراً، فيحظى بالتقريب والاكرام.

إذن هذا هو ابن السّيد دائم الترحل والبحث عن الاستقرار، هارباً من القلق، غير متكسب في شعره، راضياً من ممدوحه بالقليل من التقبل والامان والاستقرار، وربّما هذا لا يتحقق مطلقاً كلما كان الشخص قريباً من السلطة الحاكمة.

وكثيراً ما كان يهرب ابن السّيد من واقعه بمعاقرة الخمرة، فهي تنسيه واقعه المرير الذي لم يجد نفسه فيه في كثير من الاحيان(٥٢):

**سَلِّ الهمُـــومَ إذا نَبَا زَمَنٌ بمُدامةٍ صَفْراءَ كالـــــذّهبِ**

في حين قد يطالعنا بزهدٍ ممزوج بفلسفة يمكن أن تعكس ورعاً وخوفاً من الله تعالى لا يستطيعه الا الزاهد الورع(٥٣):

**إلهِي إنّي شاكرٌ لكَ حَـــامـــدُ وإنّي لسَاعٍ في رِضَاكَ وجاهـدُ**
**وإنّكَ _ مهما زلّتِ النَّعلُ بالفتى _ على العائدِ التوّابِ بالعفوِ عَائدُ**
**تباعدتَ مجــداً وادّنيتَ تعطُّـفاً وحِلماً، فانتَ المُدّني المتباعـدُ**
**ومالي على شيءٍ سِواكَ مُعولٌ اذا دهمتني المُعضلاتُ الشّدائدُ**

وربّما هذا التداخل في الملجأ في الهروب من الواقع، بين اللجوء الى الله تعالى الحصن الحصين للإنسان في الشدائد، وبين اللجوء الى الاعتكاف على معاقرة الخمرة، بين اللجوء الى القوي _ الله تعالى _ وبين الضعف في الهروب الى الخمر، ربّما يعكس حالة القلق وعدم الاستقرار والاضطراب الذي يعيشه الشاعر، إذ لم يكن مستقراً في مكان أو في ظل ممدوح واحد، كل ذلك القلق المادي في حياته انعكس في صورة ارتباك في المواقف، ومن ثم صور من القلق والتناقض في اشعاره، وربّما ظهر ذلك واضحاً في غزله بالمذكر الذي كان سبباً في هروبه من قرطبة، حين كان معلماً لأبناء ابن الحاج وهو ما سنعرج عليه لاحقاً.

**٥- المحطة الخامسة / قرطبة :**

لم يغادر ابن السيد سرقسطة هذه المرة هارباً، إنّما خرج منها مدعواً لتعليم ابناء صاحب قرطبة محمد بن الحاج (ت ٥٢٩ هـ) بعد ما ذاع صيته واشتهر بمقدرته الفائقة في التعليم، فكانت رحلته هذه المرة سلمية امنه، مرغوباً به في قرطبة، فتولى تعليم ابناء ابن الحاج الذين كانوا هم سبب خروجه عن قرطبة هارباً ليس كما دخلها معززاً مكرماً، وفي ذلك يقول المقري مقدماً لأبياته ((وكان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس صورة: رَحمون، وعَزُّون، وحَسُّون، فأُولع بهم الحافظ الشهير أبو محمد ابن السّيد البَطَلْيوسي صاحب (شرح أدب الكاتب)، ... ثم خاف على نفسه، فخرج عن قرطبة))[٥٤]، إذ قال فيهم شعراً شاذاً ( غزل بالمذكر )، فغادر مغضوباً عليه[٥٥]:

**أخفيْتُ سُقمي حتّى كادَ يُخفيني وهِمتُ في حُـــبِّ عَزُّونٍ فعزّوني**
**ثُمّ ارحَمُوني برحْمونِ وإنْ ظَمِئتْ نفسي إلى ريق حَسّونٍ فَحَسُّوني**

ولا يُستبعد أن تكون هذه الابيات قد قالها ابن السّيد، إذ إنّها ليست غائرة بالمعاني الشاذة وإن عكست سلوكاً لا يجوز أن يأتي به شخص مثل ابن السّيد عُرف بالزهد والتدين والعلم والمعرفة، وقد اشار جامع اشعار ابن السّيد الدكتور رجب عبد الجواد ابراهيم الى شك عدد من الباحثين في هذين البيتين، استناداً الى مسيرته العلمية الجادة، وحسه الديني الذي انعكس على بعض اشعاره، ويضيف ((ولما سألت استاذنا العلامة الدكتور محمود علي مكي فاخبرني أنّ هذا أمرٌ واردٌ، فعلماء الاندلس كانت لهم هذه المُلح والنوادر التي لا تدل بالضرورة على فساد العالِم ومجونه بقدر ما تدل على روحه المرحة ومواقفه الطريفة التي قد يقصد إليها قصداً ليخفِّف من وطأة الحياة وجمودها))[٥٦].

إذن فهي ابيات يمكن ان تصدر عن رجل مثل ابن السيد وان كان عالماً متديناً، ولكن أين هو من المُلح والتظرف وكل ما قاله قد اجبره على الهرب، ربّما تكون لديه اشعار قد قالها في جلسات انس وسرور أو في مناظرات ومراسلات وهذه عادة الشعراء، ولكن اعتقد أنّ هذه الابيات التي قالها في أولاد ابن الحاج إنّما جاءت تعبيراً صادقاً عمّا كان يعانيه من شغف بهم إذ لم يستطع الكتمان فباح بمكنون قلبه بكلمات ربّما لم يعرف انها ستكون سبباً بهروبه من قرطبة، وذلك بدليل قول المقري السابق.

وهكذا تبدو مسيرة الشاعر مع الأيام، غير سعيد في اغلبها، ولم تصف له ولم يجد فيها الاستقرار والسرور، فكل الاحداث انعكست بالسلب على حياته وحالته، وبالتالي وجدت صداها في بعض اشعاره التي جسدت تلك المشاعر بصورة شعرية معبرة عمّا يعانيه من قلق وعدم ارتياح، وقد تجسدت تلك الهموم بصورة فعلية في سلوكه العام، إذ كثرت عنده الشكوى من الأيام والليالي وطولها، وشكوى من الأصدقاء والعتب الدائم، مما دفعه في بعض الاحيان الى العزلة والاعتكاف، ويمكن ان يعكس ذلك قوله[٥٧]:

**أ إخواننا لِمْ غَيَّرَ الـــدَّهرُ عهدكُمْ فَصِرتُمْ لنا بَعدَ الإخَـــــاءِ أعَادِيَا**
**وحَاولتُمُ قتلِي عَـــلَى غَـيرِ ريبَةٍ سِوى فرطِ أشواقي ومحضِ وِدَادِيَا**

**ألمْ أُصفِكُمْ وُدِّي على القُربِ والنَّوى ومَلّكتُكُمْ دُونَ الأنـــــــامِ قِيادِيَا**

وهكذا هي حاله ترتسم بالسواد وطول الليل حتى نعكس مللـه من الحياة، وقد عبّر عن ذلك بقوله[٥٨]:

**تُـــــرى! ليلُنا شَابتْ نواصِيه كَبرةً كما شِبتُ أمْ في الجوِّ روضُ بهارِ؟**

**كأنّ الليالي السّبعَ في الأفقِ جُمّعَتْ ولا فَصـــلَ فيـــما بينها لنَـــهارِ**

ولا يشعر بطول الليل وهمومه إلا من تقلبت عليه الأيام، فصارت لياليه هموماً لا تنجلي بانجلائها، فالشعور بطولها لم يكن مادياً إنّما هو شعور معنوي لفَّ بسواده حياة الشاعر واحساسه حتى كادت تواصل الليل منه بالنهار بظلام لا نور يرتجى بعده.

ولكن مع ذلك كله لم تخبت جذوة ابن السّيد الشعرية ولكنها جنحت الى الصورة الحزينة المعبرة مع ما يخالج نفسه، فالملاحظ في قصائده المدحية انّه غالباً ما قدم لغرضها بمقدمة حزينة يئن فيها ويبكي ويكثر الشكوى ولم يحاول أن ينوع فيها حتى في غزله كان يبكي من الفراق وألمه ويشتكي البعد، كل ذلك ربّما يعكس القلق الذي يخالج نفسه والخوف الذي يترقب، إذ لم يجد الامان والاستقرار فكان دائم الرحيل والتنقل بين الدويلات والحكام مادحاً معتزاً بنفسه متفاخراً بشعره، وكثيراً ما صور نفسه عبداً ذليلاً لممدوحه!، إذ لم يستقم على حالة واحدة فتراوحت حاله بين الفخر حيناً والعبودية والذلة احياناً اخرى، وهذا ما يؤكد محاولته مسايرة الواقع والتقلب مع الظروف ودورة الايام، فخراً وذلاً علـه ينال ما يصبو اليه ((وتصرف ابو محمد هذا مع الأيام كيف تصرفتْ وجاراها حين اقبلتْ وحين انحرفتْ، فخدم الرِّياسات، وابرم عُرى السياسات، ونفق وكَسَد، ووقف وتوسد، ثم بَرِمَ بذلك الحَيْفِ، فَعَدل عن ذلك الخَيْفِ، وقعَد للتدريس))[٥٩]، في أخر عمره واستقرار أمره.

وليس مستغرباً من الشعراء التكسب بشعرهم، سواء أكان تكسباً مادياً أو معنوياً، ولكن ربّما يبدو الاستغراب من الخضوع والاقرار بالعبودية من رجل عالم جليل مثل ابن السّيد، وقد يدل ذلك على تقلب الايام به وعدم صفائها له وجورها عليه، وهو في كل ذلك التلون وتلك المواقف القلقة كان يمثل الشخص المقاوم الباحث عن الحياة، ومصداق ذلك قوله مادحاً الوزير الاجل الكاتب ابا بكر اللخمي المعروف بابن المُرْخَي (ت ٥٣٦ هـ) الذي توطت صلته به فمدحه قائلاً[٦٠]:

**أمَا إنّه لـــولا الدُّموعُ الهـــوَامعُ لما بَانَ منِّي مـــا تُجِنُّ الأضالعُ**

**وكمْ هَتكَتْ سِتْرَ الهوى أعْيُنُ المها وهَاجَتْ لي الشَّوقَ الـدِّيارُ البلاقِعُ!**

**خَلِيليَّ مَـالي كُلَّـــما لاحَ بَارِقٌ تَلَظَّى الحشَا وارفَضَّ مِنِّي المدامِعُ**

**ومَا ذاكَ عَـــنْ نَيْلٍ لَدَيْكَ رَجَوتُه فيصدُقَ ظـنٌّ أو يُكَذَّبَ طَـامِعُ**

**ولا أنا مِـمَّن يرتَضِي الشِّعرَ خُطَّةً فَتَجذِبَه نَحْـــوَ المُلُوكِ المطَامِعُ**

وهكذا هي صحبة الحكام، ويبدو ان ابن السّيد قد فهم هذا مؤخراً إذ لم يجنِ من صحبتهم الا التعب وعدم الاستقرار والخوف والقلق حتى ضجر الحياة، فقرر اخيراً اعتزالهم واللجوء الى من هو اقوى منهم، فالتجأ

الى الله تعالى واعتزل الدنيا بما فيها، وذلك بعد هروبه الاخير من قرطبة ونزوله في بلنسية، فكانت محطته الاخيرة.

٦- **المحطة السادسة / بلنسية، نهاية المطاف:**

وفيها توجه الشاعر الى مدح من يستحق المدح، فمدح النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتمسك بحبه طالباً الشفاعة يوم القيامة، وكثر في شعره الزهد، كما توجه بحبه الى بيت الله الذي لم يتوجه لزيارته يوماً حين كانت تشغله عنه الحياة ومطالبها، لكنه اليوم قد أدرك أنّ لا مهرب له من تقلب الأيام الا الى الله تعالى ((أَلا بذكرِ اللهِ تَطمَئنُّ القُلُوبُ))[٦١]، ففي هذه المحطة وجد الأمان والاستقرار وابتعد عن الخوف والقلق، والذي يجب الاشارة اليه ((أنّ المجتمع الأندلسي وإن طغت عليهم مظاهر اللهو، فانّ صورة الرسول كانت تتلألأ أمام أعينهم كباراً وصغاراً، ولم تكن بينهم حركات إلحادية أو زندقة كظواهر عامة مثلما وجدت في المجتمع العباسي))[٦٢].

فحب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) كان ماثلاً في قلوبهم متجسداً في قصائدهم المدحية التي برزوا فيها واجادوا، ففي قصيدة قالها في مدح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) طالباً الشفاعة، يبتدئ ابياتها بالفرار من الواقع المرير، من ذل الدنيا وذنوبه[٦٣]:

**إليكَ أفِـــرُّ مِـنْ ذُلّي وذَنبي ... فأنتَ إذا لَقِـــيتُ الله حَسبي**
**فإن أُحـــــرَم زيارتَه بجسمي ... فـــــــلم أُحرَم زِيارتَه بِقَلبي**
**عسى وُدٌّ ثوى لكَ في فُؤادي ... على بُعدٍ سيوجبُ منكَ قُربي**

يتضح هنا محاولة الشاعر الافادة من البعُد الروحي والقوة الكامنة في الرمز الديني، فيلجأ الى حب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتقرب منه بمدحه عسى أن يكون شفيعه في الاخرة، وفي الوقت ذاته ربّما يعكس هذا اللجوء نوعاً من الحزن الذي يعيشه الشاعر وبكاءً على ذلة نفسه وخوفه من ازمات الحياة وتقلب الأيام، وتجدر الاشارة هنا الى انّ فن المديح النبوي قد أصبح ((بعد القرن الخامس للهجرة، غرضاً مستقلاً، يحتل مساحة واسعة من الأدب العربي وتوجهت اليه قرائح الشعراء طلباً للشفاعة والخلاص من الواقع المؤلم الذي وصل اليه المسلمون))[٦٤].

ونراه في قصيدة اخرى يخاطب مكة المكرمة، معبراً من خلالها عن حبه وشوقه لزيارتها، مذكراً في بعض ابياتها بالتساوي بين الناس ملكهم وفقيرهم، فكلهم عبيد لله تعالى، ويؤكد هذا المعنى قوله في مقدمة القصيدة[٦٥]:

**أ مكَّةُ تَفديكِ النُّفُوسُ الكَـــرَائمُ ... ولا بَرِحتْ تنهَلُّ فِيـــكِ الغَـــمَائمُ**
**فإنَّكِ بيتُ الله والحـــرَمُ الـــذي ... لِعِـــزّته ذلَّ المُـــلُوكُ الأعـــاظِمُ**
**وفيكِ يمينُ الله يلثِمُها الـــورى ... كما يَلثِمُ اليُمنى مـــن الملكِ لاثِمُ**

ثم يدعو ويتضرع بها الى الله تعالى:

**وهلْ تَمحُونْ عنّي خَطَايا اقترفتُها خُطىً فِيكِ لي أو يَعملاتٌ رواسِمُ**
**وهل لي من سُقيا حَجيجكِ شَربَةٌ ومن زَمزمٍ يَروي بها النَّفسَ حائمُ؟**
**وكم زارَ مَغنَاكِ المعَظَّمَ مُحـــرِمٌ فَحُطّتْ بـــه عنهُ الخطَايا العظَائِمُ**
**ومن أينَ لا يُضْحِي مُرجِّيكِ آمناً وقد أُمّنتْ فـــيكِ المها والحمائِمُ؟**

ويظهر التعبير هنا رجلاً مؤمناً بما يطمح اليه، وقد أكد ذلك من خلال تكرار اداة الاستفهام (هل)، ثم تبعها بصور من الواقع تعكس التوبة لمن زار بيت الله، وفي ذلك جواب عن تساؤله.

ثم يؤكد ايمانه بشفاعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحمايته له من النار:

**عليْكِ سلامُ اللهِ ما طاف طائفٌ بكعبتِكِ العُليا، ومـا قـام قائِمُ**
..... .....
**وأهدي صلاتي والسلامَ لأحمدٍ لعلّي بهِ مـــن كَبّةِ النَّارِ سالِمُ**

وربّما عاتب ابن السّيد نفسه بصورة غير مباشرة حينما يطرح فلسفته في الزهد، في قوله[٦٦]:

**بِجوهرِكَ الأدنى عُنيتَ بحـفظهِ وضيّعتَ من جهلٍ بجوهرِكَ الأقصَى**
**لقد بِعتَ ما يبقَى بما هو هَالكٌ وآثرتَ لو تدري على فضلِكَ النّقصا**

يدعو الى الزهد بالحياة الدنيا والتمسك بالحياة العليا في الاخرة، كما يدعو فيه الى ايثار ما يبقى على ما يفنى، ولو امعنا النظر في البيت الثاني حين يوجه العتاب الى من باع الاخرة بالدنيا واشترى الفاني وترك الباقي الخالد، سنلاحظ ان ابن السّيد إنّما يحاول ان يعتب على نفسه، فالمعروف ان الشعر هو انعكاس لحالة شعورية صادرة عن تجربة صادقة عاشها الشاعر غالباً، ومن خلال مسايرة حياة ابن السّيد واحداثها لا نشك أنّها لم تصدر عن تجربة صادقة، فعليه يمكن القول انّه عتاب خاص من الشاعر لنفسه، وعتبٌ على ما ضيّع في حياته سعياً وراء اشياء مادية فانية، نال معها الاعتراف بالرضوخ والعبودية للمخلوق، وقد ادرك اخيراً _ وهو العارف لما يدرك _ أنّ السلامة في تركها والخضوع للخالق مطلقاً، خصوصاً إذا ما علمنا أنّ الزهد ((هو تعبير عن نزعة الى التخلص من الآثام ولقاء الله تعالى دون ثقل من متاع الدنيا الفانية))[٦٧]، ففي ذلك النجاة ونيل المراد، وهو بذلك يفلسف تجربته للآخرين، ويبدو ان اتجاه ابن السّيد في شعره قد اتخذ في هذه المرحلة من عمره الاتجاه الزهدي المتفلسف، فغلب على اشعاره، ويمكن ملاحظة ذلك مثلاً، في قوله[٦٨]:

**أمـــــــرتَ إلهي بالمكَارِمِ كُلِّها ولـــم ترَضَها إلا وأنتَ لها أهلُ**
**فقلتَ اصفَحُوا عَمّن أساءَ إليكُمُ وعُودُوا بِحِلمٍ مِنكُمُ إن بدا جَهلُ**
**فهل لجهولٍ خافَ صعبَ ذُنُوبه لديكَ أمانٌ مِنكَ أو جانبٌ سَهلُ؟!**

وقد اشتمل الزهد على كثير من المتروكات والمعاني، واختلفت الاقوال فيه، فدارت حول معانٍ كثيرة، الا انها في مجملها تنتهي الى معنى عام هو: ان الزاهد يجب ان يزهد فيما يشغله عن الله تعالى[٦٩]، من حب الدنيا ومشاغلها والتعلق بها، والتوجه بالقلب والجوارح الى الله تعالى حباً لا خوفاً ولا طمعاً.

ومن زهدياته المتأثرة بفلسفة المعري قوله[٧٠]:

**أنتَ وسطٌ ما بينَ ضِدّينِ يا أنْسـ ـــــانُ رُكِّبتَ صُورةً في هَيُولَي**

**إنْ عَصيتَ الهَـــوى عَلَوتَ عُلُوّاً أو أطعتَ الهـــوى سَفلتَ سُفُولاَ**

وربّما من اصدق ما يعكس حسرة ابن السّيد ولوعته وندمه في حياته، قوله في بيتين يدعو فيهما الى التفكير في دار الخلود والحياة الاخرة ونبذ دار الذل والهوان[٧١]:

**وما دَارنُا إلا مَواتٌ لـــوَ انّنا نُفكّرُ، والأُخرى هي الحَيَوانُ**

**شَرَينَا بِها عِزّاً بَهُونٍ جَهَالةً وشتّانَ عِـــزٌّ لِلفَتَى وهوَانُ**

فيبكي ذلّ الدنيا وهوانها عليه، ذاكراً سعيه فيها والذي كان سبباً في ذلك الاذلال، إذ البحث عن الاستقرار والامان قد سبب للشاعر قلقاً وخوفاً اجبره على ان يساير من لا يرتضيه ويُقر لمن لم يكن يجب ان يخضع له عبداً، فالعبودية والذلة لا تكون جميلة حسنة مقبولة بعزة، غير لله تعالى، وهذا ما ادركه ابن السّيد اخيراً.

---

## الهوامش

(١) ينظر: الادب العربي في الاندلس، د. علي محمد سلامة: ٨٥ – ٩٠.

(٢) ينظر: تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين، احسان عباس: ج٢ / ٩ – ١٠. و في الادب الاندلسي، جودت الركابي : ١٦١ – ١٦٢.

(٣) ينظر: الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، أحمد هيكل: ٣٠٥.

(٤) ديوان ابن دراج القسطلي : ٣٦٣ – ٣٦٥.

(٥) ينظر: في الادب الاندلسي، جودت الركابي: ١٨٦ – ١٨٧.

(٦) ديوان ابن زيدون، تحقيق علي عبد العظيم: ٢٩٢ – ٢٩٣.

(٧) ينظر: الادب العربي في الاندلس، د. علي محمد سلامة: ٦٩– ٧٣.

(٨) ينظر: الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، أحمد هيكل: ٣٢٦.

(٩) ينظر: تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين، احسان عباس: ج٢/ ٢١٤.

(١٠) المصدر نفسه: ٩.

(١١) ديوانه : ١٠٢.

(١٢) قلائد العقيان: ق٣/ج٢: ٧٠٨.

(١٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٤) المصدر نفسه: ق٣/ج٢: ٧٠٨ – ٧٠٩.

(١٥) كتاب الصلة: ق١/ ٢٩٢ – ٢٩٣.

(١٦) بغية الملتمس: ٣٣٧.

(١٧) ديوانه: ٤٥.

(١٨) ديوانه: ٤٦، وينظر ديوانه: ٦٦.

(١٩) ديوانه: ٥٣.

(٢٠) الشعر الاندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس: ٣٢٥.

(٢١) ديوانه: ٥٢.

(٢٢) ازهار الرياض، المقري: ج٣/ ١٠٩.

(٢٣) ينظر: الادب العربي في الاندلس، عبد العزيز عتيق: ٢٥٥ – ٢٥٨.

(٢٤) الشعر الاندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس: ٣٢٤.

(٢٥) ديوانه: ٤٨ – ٤٩.

(٢٦) ازهار الرياض: ٣/١١٢ – ١١٣.

(٢٧) الدلالات الرمزية في شعر الصعاليك الى نهاية العصر الاموي( رسالة دكتوراه): ٣٧.

(٢٨) المرثاة الغزلية في الشعر العربي: ٢٠.

(٢٩) ديوانه: ٥٨–٥٩.

(٣٠) الأمل واليأس في الشعر الجاهلي: ١٠٧.

(٣١) ديوانه: ١٥٤.

(٣٢) ينظر: ازهار الرياض: ٣/ ١٣٥، و الذخيرة: مج٣/ ٥٨٧.

(٣٣) ديوانه: ١٢٨.

(٣٤) ديوانه: ١٣١.

(٣٥) الشعر الاندلسي عصر الطوائف: ٨٤.

(٣٦) ديوانه: ٨٣.

(٣٧) ينظر ديوانه: ٦٢و ٨٦.

(٣٨) ديوانه: ٥٤–٥٥.

(٣٩) ديوانه: ٧٩.

(٤٠) ديوانه: ٨٠.

(٤١) ديوانه: ٩١.

(٤٢) ديوانه: ٩٤.

(٤٣) ديوانه: ٤٣.

(٤٤) ازهار الرياض: ١٢٣.

(٤٥) المصدر نفسه:١٢٤.

(٤٦) المصدر نفسه: ١٢٥.

(٤٧) ديوانه: ٤٧.

(٤٨) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة: مج٣/ ٥٨٨.
(٤٩) ديوانه: ١٥٣.
(٥٠) ديوانه: ١٥١.
(٥١) ديوانه: ١٥٢.
(٥٢) ديوانه: ٦٧.
(٥٣) ديوانه: ٦٨.
(٥٤) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب: ٣/ ٢٨٧.
(٥٥) ديوانه: ١٥٨.
(٥٦) ديوانه: ٢٨.
(٥٧) ديوانه: ٧٤.
(٥٨) ديوانه: ٧٥.
(٥٩) قلائد العقيان: ق٣/ج٢/ ٧٠٨-٧٠٩.
(٦٠) ديوانه: ١٠٥.
(٦١) الرعد: ٢٨.
(٦٢) فنية شعر المديح النبوي في الاندلس: ٢٨.
(٦٣) ديوانه: ٥٧.
(٦٤) فنية شعر المديح النبوي في الاندلس: ٢٠.
(٦٥) ديوانه: ١٢٤.
(٦٦) ديوانه: ١٠٠.
(٦٧) النثر الصوفي: ١٠٧.
(٦٨) ديوانه: ١١٧.
(٦٩) ينظر: النثر الصوفي: ١١٠-١١٣.
(٧٠) ديوانه: ١٢١.
(٧١) ديوانه: ١٤٩.

## تراجم بعض الأعلام

١- **ابن السِّيد البَطَلْيَوْسي:** الفقيه الاستاذ ابو محمد عبد الله بن السِّيد البَطَلْيوسي، إمام الاوان ومَعْلَمُ النحو وعلمُ الاثبات فيه والمحو، كان عالماً بالأدب واللغات متبحراً فيها مقدماً في معرفتها واتقانها، له عدة مؤلفات اشهرها الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، والسِّيد: بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة وهو من جملة اسماء الذئب سُمّي الرجل به. والبَطَلْيوسي: نسبة الى بَطَلْيوس تقع على الحدود الشرقية للبرتغال. وقد كان عالماً بالآداب واللغات مُستبحراً فيها مقدماً في معرفتها واتقانها، يجتمع الناس اليه ويقرأون عليه ويقتبسون منه، وكان حسن التعلم جيد التلقين ثقة ضابطاً، وكان مولده سنة اربع واربعين واربعمائة، وتوفي في رجب الفرد سنة إحدى وعشرين وخمسمائة. وهنالك تأليف خاص اخرجه الفتح بن خاقان ضمّنه التعريف به خاصة، وقد اورده المقري في أزهار الرياض كاملاً:( ١٠٣ – ١٣٧)، وقد ذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الفتح ابن خاقان، ( كتاب ترجمة عبد الله بن

محمد بن السَّيد البطليوسي). ( **ينظر: القلائد: ٧٠٨، الذخيرة: ٥٨٤/٣، الصلة: ق١/ج٥/٢٩٢ رقم ٦٤٤، بغية الملتمس: ٣٣٧ رقم ٨٩٢، أزهار الرياض: ١٠١/٣- ١٤٩**).

٢- **ابن الحاج:** محمد بن أحمد بن خلف بن ابراهيم بن لب بيَطيْر، يعرف بابن الحاج، قاضي الجماعة بقرطبة، يكنى: ابا عبد الله، فقيه وراوي، كان من جملة الفقهاء وكبار العلماء معدوداً في المحدثين والأدباء، ذاكراً للغريب والانساب واللغة والاعراب، عالماً بمعاني الاشعار والسير والاخبار، كان له مجلس بالمسجد الجامع بقرطبة يسمع الناس فيه، وتقلد القضاء بقرطبة مرتين، ولم يزل آخر مدته يتولى القضاء بقرطبة الى أن قُتل ظلماً بالمسجد لأربع بقين من صفر سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان مولده في صفر سنة ثمان وخمسين واربعمائة. ( **ينظر: الصلة: ق٢/ج٩/ ٥٨٠ رقم ١٢٧٨، المغرب ١/ ٦٠**).

٣- **ابن رَزين:** ابو مروان عبد الملك بن رزين بن هذيل، حسام الدولة بن خلف بن لب بن رزين، صاحب السهلة، ولي الحكم عن ابيه سنة ٤٣٦ هـ، كان شديد الاعجاب بنفسه وكان يتعسّف على الشعراء ويتعسّر بمطلوبهم من العطاء، وكانت وفاته سنة ست وتسعين واربعمائة. ( **ينظر: القلائد: ١/ ١٥٧، الذخيرة: مج٣/ ٦٩، المُغرب: ٢/ ٤٢٨ رقم ٦١٥**).

٤- **المستعين بالله بن هود:** رأس دولتهم، أحمد بن محمد بن سليمان بن هود، صاحب سَرَقُسطة الذي حكم (من ٤٧٨ هـ الى ٥٠٣ هـ) ويقال له المستعين الاصغر، وقد ابقى عليه يوسف بن تاشفين لما رآه من مضايقته للروم، وقد توفي شهيداً في حروبه مع النصارى سنة ٥٠٣ هـ.( **ينظر: المغرب: ٤٣٧/٢ رقم ٦٢٢، القلائد: ٥٤٨/١، و٧١١/٢**).

٥- **المتوكل بن الافطس:** المتوكل بن المظفر، ابو محمد، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيني بن الافطس، كان رجلاً شجاعاً عظيم القدر كبير البيت، وكان ابوه المظفر بالله من فحول العلماء، وكان المتوكل في حضرة بطليوس كالمعتمد بن عبّاد في حضرة أشبيلية. ( **ينظر: القلائد: ١/ ١٢٢٠، المغرب: ١/ ٣٦٤ رقم ٢٥٦**).

٦- **الوزير الكاتب ابو بكر بن عبد العزيز:** هو ابو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز المعروف بابن المُرْخَي، من أهل قرطبة وكان عالماً بالكتابة والأدب واللغة وأنساب العرب، وكان وزيراً جليلاً بوزارة السلاطين بقرطبة توفي سنة (٥٣٦ هـ ). ( **ينظر: القلائد: ٤٧٧/١، المغرب: ٣٠٧/١ رقم ٢٢٠، الصلة: ق٢/ج٩/٥٨٧ رقم ١٢٨٩**).

٧- **علي بن محمد بن السِّيد النحوي:** من أهل بَطَليوس، يكنى ابا الحسن ويعرف بالخيطال وهو اخو الشيخ ابي محمد بن السِّيد، راوي أخذ عنه اخوه ابو محمد كثيراً من كتب الأدب وغيرها، توفي بقلعة رباح معتقلاً من قبل ابن عُكاشة قائدها في نحو الثمانين واربعمائة، وكان مقدماً في علم اللغة وحفظها والنبط له. ( **ينظر: الصلة: ق٢/ج٧/٤٢١ رقم ٩٠٣**).

٨- **القادر بالله:** يحيى حفيد المأمون بن ذي النون، وفي أيامه أخذ الأذفونش طليطلة بعد أن حاصرها سبع سنين، وكان ذلك سنة ٤٧٨ هـ، بعد ان توالت عليه الفتن المظلمة فخرج ابن ذي النون منها على اقبح صورة، لم يكن له باع في الطلب ولا حظ في الأدب، كان كما زعموا إمعة إمره، اجبن من ثُبرّة، إن حزم لم يعزم، وإن سدّى لم يُلحِم. ( **القلائد: ٢٠٤/١ و ٣٩٣، الذخيرة: مج٤/٩٣- ١٠٣**).

٩- **ذو الوزارتين القائد ابو عيسى بن لبُون:** أحلُّ وزراء ابن ذي النون المعتدّين في دولته المنفذين لبأسه وصولته، كان شهم الفؤاد معدوداً في الاجواد، مفضلاً في الوزراء والقوّاد، له نظمٌ نُظمَ من المحاسن جُملاً واعاد سامعة ثملاً، وكان قبل ذلك وزيراً للمأمون بن ذي النون، ولعب عليه جاره ابن رزين صاحب السهلة فأخرجه منها ولم يعوضه بشيء عنها. ( **الذخيرة: مج٣/ ٦٥، المغرب: ٢/ ٣٧٦، القلائد: ١/ ٢٨٩**).

# مصادر البحث


١. الأدب الأندلسي، د. ماريا خيسوس روبييرا، ترجمة وتقديم، د. أشرف علي دعدور/المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩.

٢. الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، دز أحمد هيكل، دار المعارف القاهرة، الطبعة ١٨، ٢٠٠٨.

٣. الأدب العربي في الاندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٥.

٤. الأدب العربي في الأندلس، تطوره موضوعاته واشهر اعلامه، د. علي محمد سلامة، الدار العربية للموسوعات، بيروت لبنان ١٩٨٩.

٥. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأبيار، عبد الحفيظ شلبي، سعيد احمد اعراب، محمد بن تاويت، عبد السلام هراس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩.

٦. الأمل واليأس في الشعر الجاهلي، د. كريم حسن اللامي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ٢٠٠٨.

٧. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الضبي- أحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة(٥٩٩هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.

٨. تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الاردن، ٢٠١١.

٩. الدلالات الرمزية في شعر الصعاليك الى نهاية العصر الاموي، هند اكرم عبد الرحمن، (اطروحة دكتوراه)، جامعة البصرة، كلية التربية ٢٠١١.

١٠. ديوان ابن دراج القسطلي (ت ٤٢١هـ)، تحقيق د. محمود علي مكي، منشورات المكتب الاسلامي بدمشق، ط١، ١٩٦١.

١١. ديوان ابن زيدون، تحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، ١٩٧٧.

١٢. ديوان ابن السِّيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ)، جمع وتوثيق ودراسة د. رجب عبد الجواد ابراهيم، مكتبة الآداب ، القاهرة، ط١/ ٢٠٠٧.

١٣. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشنتريني، تحقيق عبد الحميد العبادي ، عبد الوهاب عزام /مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٢ .

١٤. الشعر الاندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨.

١٥. فنية شعر المديح النبوي في الاندلس، د. عمر ابراهيم توفيق، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان الاردن، ط١/ ٢٠١١.

١٦. في الأدب الأندلسي د. جودت الركابي/ مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة/ ط٦، ٢٠٠٨.

١٧. في الادب الاندلسي، د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا ٢٠٠٠.

١٨. قلائد العقيان ومحاسن الاعيان، ابي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي، الشهير بابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ)، حققه وعلق عليه د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الاردن الزرقاء، ط١/ ١٩٨٩.

١٩. كتاب الصلة، ابن باشكوال، ابي القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤ ٥٧٨ هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨.

٢٠. المرثاة الغزلية في الشعر العربي، د. عناد غزوان اسماعيل، مطبعة الزهراء، بغداد ط١/ ١٩٧٠.

٢١. النثر الصوفي دراسة فنية تحليلية، د. فائز طه عمر، دار الشؤون الثقافية، بغداد ٢٠٠٤.

٢٢. نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨ز